

الإذاعة فن وحياة

للاستاذ يوسف الخطاب

وتحية لجمال الدكتور حامد زكي بك وزير
الأذاعة بسد جوكه القنبه في الخارج

« الإذاعة فن وثقافة وحياة »

هذا هو التعريف الكامل الذي أطلقه الأستاذ راشد رسم في تقريره الأخير عن جهوده المشرفة بالقسم الأوربي .

وكم كان يودنا ألا يقف عند هذا التعريف السريع مع صحته وأن يتناوله بنسب من الشرح والتفسير ، بما عرف عنه من روح العلم والتحليل ، حتى يسد فراغا يلسه نقاد الفن حين يحاولون تفسير الظاهرة الإذاعية ، والكلام عن وسائلها وعن القامعين بها . وبظهر أنه أراد أن يسلم هؤلاء النقاد الموضوع بكرأ ليفتقوا جوانبه ، ويجلوا بعض ما غمض فيه . ولكن إذا كان الناقد في مثل هذا المجال مضطراً إلى التوفر على إجلاء جوانب الموضوع — مادام صاحب التعريف قد فتح الباب أمامه ودعا إلى إعمال ذهنه في الفهم والتفسير — فإنه مضطر كذلك إلى مجاراة صاحب الموضوع في السرعة ، فيعرضه بسرعة الصوت الذي هو وسيلة الإذاعة نفسها ، وإن كان واجبه يحتم عليه الوقوف عند أطراف التعريف وقفت غير طارئة .

وأول ما يصح للناقد أن يقف عنده هو الطرف الأول من التعريف « الإذاعة فن » ، ولا شك أن هذا هو التعريف الجديد الذي تقدمه المدرسة الحديثة لفهم الإذاعة فهما صحيحا . وهو فهم يرفض الرأي القديم القائل بأن الأذاعة حرفة يمكن أن يشتغل بها كل إنسان عاطل من المهنة الإذاعية . ولقد كان هذا الرأي القديم يبطل إنسانية الأذاعة ، ويحبيسها إلى لعبة آلية يمكن أن يلهموا بها كل من أفسح الطريق أمامه ، أو قرأ كتابا على هامش فن الإذاعة ، مع أن هذا الفن عملية فكرية مركبة لا يمكن أن يجيدها إلا كل إنسان يحيا في نفسه حياة إذاعية ، ويشعر بحاجة مجتمعه الحي إلى هذا اللون من الفن ، وتكون عنده القدرة على تحقيق موهبته

بالفعل ، فليس فن الإذاعة نوعا من المهارة بل هو الحياة نفسها كما تبدو في الصلة بين المذيع والمستمع مهما كان لون الحديث الذي يقدمه .

ويبدو أننا قفزنا إلى موضوعنا مرة واحدة وربطنا بين الأذاعة وحياة المشتغلين بها من جهة ، وبينها وحاجة المجتمع إليها من جهة أخرى . والواجب يقضى بأن نتعرف إلى طبيعة الإذاعة نفسها ، وما تحمل من عناصر وجودها التي تلتقي مع هذين المنصرين : النفسى منهما والاجتماعى . وعندنا أن هذا الفن وقد دفعت إلى ظهوره الصورة الملحة والرغبة في الاتصال بجموع الناس ، فإن طبيئته قد تحدت وسط زوايا الفنون الأخرى التي وجد المجتمع أنها لا تفي بحاجته في التعبير عن حياته — وحياة الإذاعية بالذات . والحياة الإذاعية التي تفصدها هي التي تحدد طبيعة الأذاعة نفسها . وتمثل في شعور المجتمع بأن فيه وفي نفوس أفرادها أشياء مكبوتة ، ووظيفة الإذاعة هي الإفشاء بها بمعنى إفراغ مضمونها ورفع الحجاب عنها . وهذه حقيقة لها سند من التاريخ — التاريخ الحقيقي لهذا الفن . والأذاعة لم تجرز إلى الوجود إلا بعد أن ظهرت نظريات العقل الباطن وروجت المدرسة النفسية لفكرة الكبت ونادت بضرورة التنفيس بوقدمت التحليل النفسى كعلاج . والظاهرة الإذاعية في حقيقتها قريبة من جوهر الاعترافات التي يطلقها المريض أمام المحلل النفساني .

وليس معنى هذا أن كل ما يذاع أمام الميكرفون اعترافات سيكوباتولوجية، بل هي عملية إفشاء أو إفراغ نفسية لما يدور داخل النفس ، وتصوير هذا العالم بالأسوات المعبرة . أو على الأقل هذا ما يجب أن يكون عليه شكل الاذاعات والطريقة التي يجب أن تذاع بها حتى تكون الإذاعة حديث نفس إلى نفس يريح كتابا النفسين من الدفين بها . وهذه الطريقة وحدها تحقق الإذاعة وظيفتها وقدرتها الكاملة على التأثير في الفرد والجماعة . وتؤكد وجودها كفن قائم بذاته له طبيئته وخصائصه المنفصلة عن بقية الفنون .

ولا زبد أن نذهب بعيداً في التدليل على صحة نظريتنا ، ونكتفي بأن نقول إن وظيفة الاذاعة قريبة من وظيفة المسرح والسينما . وانهما إذا كانا يقرمان بتطهير العواطف .

بشكل ما فإن الإذاعة تحقق هذه بشكل أوسع لأن الرفبة في الإفضاء طبيمة في نفس كل منا للكبت اللاحق بها . هذا الكبت الذى يحول دون أن يخلص كل ذاته مما يريد الإفضاء به . وحتى إذا استطاع أن يتشاب عليه فإنه تعوزه القدرة على التعبير - وهذا ما يحققه المذيع أو ما يجب أن يقوم بتحقيقه مهما كانت مادة الحديث الذى يقدمه - فإذا كان تجربة عاطمية وجب أن تتمثل فيها نفاثية الماطفة وأصالتها . وإذا كان بحثاً فكرياً وجب أن يتميز بالحدة أو العرض المتكرر .

هذه هي مادة الاذاعة وطبيعتها ، أما الشكل أو الإطار الفنى الذى تقدم من خلاله هذه المادة فالواجب يقضى بضرورة اشتراك معها في تلك الطبيمة الإذاعية . ورغم ما يذهب إليه البعض من أن المادة تحم الشكل وتصنعه ، فإني أرى أنه يجب ألا يترك الشكل خاضعاً لها ، فكثيراً ما يرتفع جانب الشكل بجانب المادة . وإذا اجتمعت المادة مع الشكل تم الطرف الأول من عملية التعبير الإذاعية ، ولم يبق إلا أن نعرف كيف تم عملية التعبير كلها ، أو نعرف على الأقل الوسيلة إلى إيصالها إلى الطرف الثانى وهو المستمع . وهذا أمر لا يتم إلا عن طريق الصوت والصوت وحده - لا الكلمات أو النغم . أقول هذا لأن أحوالنا فى الإذاعة الى حشد متزاحم من الكلمات التى تصدع ارؤوس ، والنفاثات التى عملاً فراغاً يشمر به مقدم البرنامج - ويشكو الأستاذ راشد من ذلك الفراغ في تقريره مر الشكوى .

إن الإذاعة فن متفرد بذاته ، وهذا التفرد يتمثل في الوسيلة التى يستخدمها ، ولا تقصد بالوسيلة الصوت المجرد القائم على ذبذبات لا تحقق التعبير الذى تهدف إليه ، بل تقصد أننا مادامنا نريد إقراغ نفوسنا بما بها ، فلا بد أن يتخذ هذا الصوت شكلاً فنياً مؤثراً يخضع للتقاليد الفنية السائدة في كل الفنون . ومادامت هذه الفنون تخضع وسائلها لتقاليد الفن art conventions فعلى الاذاعة أن تجاريها عند استخدام وسيلةها ، فلا تقدم الصوت الإلباني كما هو ، عارياً من كل تأثير ، بل لابد أن يدخل الفن عليه ، ويتناوله بالمعالجة ، ويخضعه لطبيمة الاذاعة السائرة حول الإفضاء بنية تحقيق التأثير الصوتى .

وقد يثور على هذا القول أصحاب المدرسة الفائلة بضروه

أن يكون الفن صورة مفسرحة من الحياة . والرد عليهم بسيط فالاذاعة ككل فن تستطيع أن تجمع في وقت واحد بين محاكاة الحياة وتظل خاضعة في نفس الوقت لمطالبات الفن . وإن يحدث ما يطلبه أصحاب هذه المدرسة إلا حينما ينزل الميكرفون إلى الشارع ويدخل بينى وبينك ، ويكشف عن حياتى وحياتك ، ويقدم مأساة أسرتى وأسرتك - وهذا أمر يصعب تحقيقه الآن . وحتى يتم فانا نطالب بأن تتمتع الوسيلة الإذاعية حتى آخر قطرة فيها وتقدم الصوت في أدق صورة الفنية . وطربتنا إلى ذلك واضح بسيط يتمثل في الرجوع به إلى حقيقة الأولى ، في الصورة التى ظهر عليها منذ بدء الإنسانية ، منذ قرع الإنسان أول طبول الغابة ، حتى استخدمه المعصر الحديث في تغير السيارة وصفارة الإنذار اينيه الناس أقوى تنبيه ، في أقصر وقت ، وبأقل جهد ، مؤكداً بذلك أن الصوت قادر على إبلاغ رسالته إلى أبعد حد ، دون اعتراف بموائل الزمان والمكان ، أو وقوف عند الحدود الضيقة التى تقف عندها كلمات اللغة أو نغمات الموسيقى التى تستخدمها الآن .

ولو وقتت الاذاعة إلى استخدام الصوت بهذه الطريقة ، لانتمت وسيلتها الحقيقية ، وضمت عدم انصراف الناس عنها ، ولما حدث لها مثل الذى حدث لسينما من انصراف الجمهور عنها حينما خرجت على وسيلتها التى تتمثل في الصورة . والناس على حق في انصرافهم ، لأن الفنون حين تثور على حدردها تفقد فنيتها . وإذا كنا نقيس الفن بمتدات تأثيره في الناس ، وعدد من

يحركهم ، وطول الزمن الذى يظل تأثيره فيهم ، فقد رأينا أن الصوت كانت له القوة على تحريك الناس في كل زمان وكل حضارة نحو الهدف الذى يريده مذيع الصوت ، وسيظل كذلك والشكوى من انصراف الجمهور عن سماع الاذاعة ، والنقد المتوالى لها ، يعجبها حسن استخدام الصوت لأنه كفيل بحمل الجمهور على الأستماع إليها ، وتوجيهه نحو الهدف الذى يريده له .

ومما قيل من نقد رأينا فيكفى لارد أن المستمع لا يعرض لصاحب الإذاعة تعرضاً مباشراً - كما هي الحال في الحياة - بل إنه يستمع إلى صوته أو أصوات الشخصيات التى يقدمها من بعيد عن طريق هذا السكائن الجديد الذى يوصل إليه مادة الاذاعة .

وتأثير هذا في المستمع يختلف كل الاختلاف عما لو استطاع إليه